«يا شمس غيبي»..
مفقود في شوارع المعادي
(١)

الرجل الذي صمم المعادي لم يعرف من علم الهندسة سوى بناء ميدان وكشك ومحل ورد، وهكذا نكرر اللعبة، فتخرج من ميدان على يساره كشك وعلى يمينه محل ورد لتدخل في آخر... كنت على موعد مع الطبيب في الخامسة مساءً، الشارع الذي تقع فيه العيادة موازٍ لشارع ٩ الشهير، نزلت من الكوبري، كان أمامي خياران؛ إما أن أدور حول الميدان، وأدخل الشارع المواجه، أو أنعطف بالسيارة في الشارع الأيمن الملاصق لنزلة الكوبري، والذاكرة لا تملك أي خلفية عن شارع أزوره لأول مرة، فكرت للحظة، فقررت الدخول يمينًا بعد نزلة الكوبري مباشرة، قطعت طريقًا طويلًا اكتشفت في آخره أنني أمام «القمر الصناعي»!، «أنا فين؟» سؤال إجابته البديهية سؤال آخر هو: «إنت إيه اللي جابك هنا؟».

ككل شيء راقٍ في مصر أنشأ الخديوي إسماعيل المعادي في نهاية القرن التاسع عشر، كان الرجل سابقًا لعصره عندما فكّر في بناء أول كومباوند في منطقة حلوان، كان الهدف منه استثمار المنطقة سياحيًا وتحويلها لمنتجع سياحي قريب من الجيزة وسقارة، وفي عام ١٨٦٨ أرسل إسماعيل مجموعة من

الخبراء من بينهم طبيبه الخاص إلى حلوان؛ لبحث طبيعة الآبار وإمكانية تنمية المكان واستثماره، بعدها شيّد الخديوي قصرًا عام ١٨٧٧ وأهداه لأمه وسمي «قصر الوالدة».

بناء القصر دفع أبناء الطبقات الراقية لمجاورته، فتهافتوا على البناء هناك، وبذكاء مستثمر ربط الخديوي حلوان بالقاهرة عبر خط سكة حديد افتتح عام عام ١٨٨٩، وبدأ المستثمرون في شراء الأراضي بجوار الطريق.

يقول بعض المؤرخين إن حي المعادي «يهودي»، أو بمعنى أدق كان نواة لاستيطان الجالية اليهودية في مصر، دعك من هذه التفسيرات التي لم أقتنع بها، هي كلام أقرب لـ«طق حنك» المدونات، وأبعد عن الرؤية الحقيقية للتاريخ، ففي بداية القرن العشرين فازت أسرة «موصيري» أحد كبراء يهود مصر بمساحات من الأراضي في تقسيم المعادي بعد شرائها من شركة «أراضي الدلتا» التي أسستها الطبقة الأرستقراطية البريطانية في مصر.

وقام ضابط كندي يدعى «آدامز» بالتخطيط لإنشاء المدينة كحي سكني على الطراز البريطاني الاستعماري من خلال الشوارع المستقيمة، وبناء الفيلات ذات الطابقين والحديقة الأمامية المليئة بالأشجار النادرة، لا تظن أن «آدمز» هو السبب في قصة الميدان والكشك إياها!

تولت الشركة الترويج للسكن في الحي الهادئ، وفي عام ١٩١٠ قامت الشركة بإنشاء ناد رياضي أطلقت عليه اسم «المعادي سبورتنج»، وأقامت فيه ملاعب الجولف والكروكيت والهوكي والفروسية وحمامًا للسباحة، وعدة مبانٍ

للمطاعـم والضيافـة.

كانـت تتفـرع شـوارع المنطقـة بشـكل مسـتقيم نحـو الميادين الرئيسـية في نواحـي الحـي المختلفـة، وحمـل الشـارعان الرئيسـيان اسـمي ملـكا مـصر آنـذاك، فـؤاد الأول والأمـير فـاروق، بينـما سـميت الشـوارع الأخـرى بأسـماء مؤسسـيها مـن اليهـود والبريطانيين، فكانـت تسـمى «قطـاوي» و«موصـيري» و«آدامـز» و«وليامسـون»، إلا أنهـا تغـيرت في الأعـوام الأخـيرة لتحـل محلهـا الأرقـام مثـل شـارع ٩.

ومـع تزايـد انتقـال القاهريـين إلى المعـادي أنشـأت الأقليـة اليهوديـة معبـدًا في عـام ١٩٣٤ بنـاه الثـري مائـير بيتـون وأسـماه مائـير عينايـم، وأسـس بعدهـا الحـي اليهـودي في المعـادي، وأصبـح الحـي مركـز جـذب لليهـود المصريـين، حيـث شـيدت فيـه الفيـلات الفاخـرة لأثريـاء الطائفـة أمثـال عائلـة «شـيكوريل» و«مزراحـي» إلى جـوار منـازل اليهـود الأشـكناز مـن عائـلات «ألتـمان وولـف» و«ليفشـيش» و«روتشـيلد». وبلـغ عددهـم في منتصـف الأربعينيـات مـا يقـرب مـن ٢٠ ألـف شـخص، شـكّلوا ثلـث سـكان الحـي، بعدهـا أنشـأ المسـيحيون كنيسـة كاثوليكيـة، هـل صمـت المسـلمون؟ لا بالطبـع فتحولـت المعـادي إلى رمـز للوحـدة الوطنيـة بتشـييد أول مسـجد عـام ١٩٣٩، وافتتحـه الملك فـاروق الأول ملـك مـصر في ذلـك الوقـت، وأطلـق عليـه اسـمه «مسـجد الفـاروق».

سـكان المعـادي يعرفـون جيـدًا الفـرق بـين شـوارعها، والوافـدون إليهـا مثـلي يتوهـون إذا لم يسـتعينوا بعـراب مـن أبنـاء الحـي، في كل مـرة يلزمـك القـدر بالذهـاب إلى هنـاك اسـترجع

أسماء كل أصدقائك «المعاديست»، قبلها حاول أن تتصل به للسؤال عن الصحة والأحوال، سيندهش من عودتك بعد غيبة طويلة، ولكنه سيفهم غرض الاتصال عندما تكرر المكالمة وتسأله: «هو شارع دمشق متفرع من شارع ٩ ولا موازي ليه ياعباس»؟!

(٢)

كل مرة أتوه في شوارع المعادي، لا أتذكر سوى ملامح شارع ٩ التي تغيّرت الآن، هنا كان دجاج تكا، وإلى جواره آيس كريم باسكن روبنز، تبدّل كل هذا، وظهرت كافيهات كثيرة واجهاتها ملونة بالأبيض والأزرق اليوناني، والأصفر الكناري والأحمر الجنزاري والليلاه والجانجاه والبيستاج!

وضعتُ وصلة الهاتف في الكاسيت لأدير أغنية من «الساوند كلاود»، أحب هذا البرنامج؛ لأنه ل ايلتهم باقة الإنترنت مقارنة بـ«يوتيوب» و«فيس بوك»، في قائمة متابعاتي وجدت أغنية «يا شمس غيبي» لـ«أميرة»، هل تتذكر «أميرة»؟ تلك الفتاة الخمرية هادئة الملامح ملائكية الصوت.

الشمس تغرق وراء شجرة لبلاب عملاقة في آخر الشارع، أوقفت السيارة، وسافرت مع «أميرة» لدقائق، هناك في عام ١٩٩٣، عندما سمعت الأغنية لأول مرة، من صاحبة هذا الصوت الساحر؟

«يا شمس غيبي» واحدة من البصمات الخفية التي حفرها مصطفى قمر كملحّن في مشوار موسيقى الجيل، «مصطفى»

الـذي لحّـن فلتـات مثـل «أبـين زيـن» لأنوشـكا، «وعـودة» لحميـد الشـاعري، و«عـلى كيفـك ميـل» لإيهـاب توفيـق، يشـكل ثنائيًـا مدهشًـا مـع سـامح العجمـي في هـذه الأغنيـة، ويكمـل القصـة حميـد الشـاعري موزعًـا.

مثـل كل أصـوات هـذه المرحلـة اكتشـف حميـد الشـاعري «أمـيرة» حينـما كان يعـد ألبومـه «كواحـل» في صيـف ١٩٩١، يحكـي الملحـن أشرف السرخوجـلي القصـة قائـلًا: كتبـت لـ«حميد» أغنيـة «وينـك» في ألبـوم «كواحـل»، كان «حميـد» يواصـل الليـل بالنهـار في سـتوديو «إم سـاوند» بمـصر الجديـدة؛ لتنفيـذ الألبـوم، دعـاني «حميـد» لأسـمع أغنيـة «وينـك» بعـد انتهـاء تسـجيلها، صمـت صـوت «حميـد» في البدايـة، وفجـأة ظهـر صـوت فتـاة أعتقـد أننـي لم أسـمع في عذوبتـه ورقّتـه مـن قبـل.

من هي هذه الفتاة؟

قدّمهـا «حميـد»، اسـمها حنـان زكريـا، والمفارقـة أن جدتهـا هـي أمـيرة كامـل مطربـة الأوبـرا الشـهيرة، وخالتهـا فايـدة كامـل المطربـة والسياسـية المعروفـة، كانـت «حنـان أو «أمـيرة» نموذجًـا مختلفًـا عـن الأصـوات الجديـدة في هـذه المرحلـة، كانـت زاهـدة في البحـث عـن الفرصـة، كل شيء جـاء بالصدفـة، بدايـةً مـن لقائهـا بـ«حميـد» وصـولًا إلى أول ألبوماتهـا، والـذي شـاركت في إنتاجـه عـلى نفقتهـا، رغـم كل العـروض التـي قُدّمـت لهـا، فقـط قبلـت بقيـام شركـة «الـشرق» بتوزيـع الألبـوم والمشـاركة في إنتاجـه!

بـدأت «أمـيرة» حكايتهـا في «الكونسرفتـوار»، ثـم غنّـت في الأوبـرا، وشـاركت «حميـد» في أغنيـة «كواحـل»، بعدهـا قدّمهـا «حميـد» للمنتـج طـارق عبـد الله، وشـاركت في ألبـوم «هـاي كواليتـي» بأغنيتـين؛ همـا «ليـلي» و«غـير قلبـك».

(٣)

خطف صوت «أميرة» الأسماع، فتعاون معها علاء عبد الخالق في أغنية «بحبك باستمرار»، والتي كانت علامة فارقة في مشوار «علاء» أيضًا، هذا في حد ذاته حوّل «أميرة» إلى شريك مناسب في الدويتوهات مع مطربين آخرين، كان في مقدمتهم محمد منير الذي غنّت معه «سحر المغنى»، لا أحد يعرف سر السعي وراء الغناء مع «أميرة»، ربما كان صوتها مناسبًا، ربما كانت الصوت النسائي الأكثر طزاجة بين أصوات استهلكت وقتها في ألبومات منفردة، وأخرى مجمعة «كوكتيل».

قدّمت «أميرة» أول وآخر ألبوماتها «أول كلامي»، مفارقة أن يكون أول كلامها هو نهايته، ولكن الألبوم كان قويًا، حشد مجموعة من المؤلفين والملحنين من الصعب أن يجتمعوا مجددًا، تولى الكتابة عادل عمر، وهاني الصغير، وسامح العجمي، ومصطفى زمكي، وظهر اسم مصطفى كامل، ومعه الملحن «الشاب» عصام كاريكا في أغنية «قوي»، وتولى التلحين مصطفى قمر، وأشرف السرخوجلي، وحميد الشاعري، ومحسن طاهر، أما أغنيتي المفضلة «زي الطيور» فكتبها ولحنها ناصر المزداوي، وشارك حميد الشاعري في غنائها؛ ليقدم مع «أميرة» دويتو من أفضل دويتوهات «حميد».

صدر الألبوم عام ١٩٩٣، وقبلها بأشهر فاجأت «أميرة» الجميع بدويتو «وسط الدايرة» مع محمد منير في افتتاح دورة ألعاب البحر المتوسط بفرنسا، توقّع الجميع أن تنجح «أميرة»، تهافت عليها المنتجون لتكمل مشوار نجمة تملك

كل المقومات لتنافس على الساحة أي صوت نسائي يستحق النجومية، ولكن ماذا حدث؟

في منتصف التسعينيات اختفت «أميرة»، ابتعدت عن الاستديوهات، حاول حميد الشاعري وآخرون إعادتها، ولكنها رفضت، سافرت خارج مصر أكثر من مرة، ثم هاجرت إلى كندا، واستقرت وتزوجت هناك، اعتزلت «أميرة» الغناء مبكرًا، مبررة ذلك برغبتها في عيش حياة هادئة بعيدًا عن صخب الفن، اختيار صعب أمام شخص تذوق حلاوة الشهرة فتخلى عنها سريعًا، أسرع من الشمس التي غابت وموعد الطبيب الذي ضاع، وقطعة الآيس كريم التي ذابت، بينما «الساوند كلاود» يعيد «يا شمس غيبي»، لا أعرف للمرة الكم!

«يا شمس غيبي»
غناء: أميرة
ألحان: مصطفى قمر
كلمات: سامح العجمي
توزيع: حميد الشاعري
إنتاج: الشروق